شاكر حسن آل سعيد.. وداعاً

صور شخصية وترجيح حالات وأفكار

سهيل سامي نادر

القسم الاول

المريض العراقي

اكتشافات عمان 2002

في الشهر العاشر من عام 2002 كنت في الأردن، تحاصرني رغبات متناقضة في أن أستقر فيها أو رجع إلى الوطن سريعاً. كنت أحب عمان بشرط أن أكون عاطلاً، ماكثاً في مكان واحد، وغير مضطر إلى التنقل في مدينة لا تقدم تسهيلات في المشي إلا عند النزول. ولقد توفر لي مكان فسيح جداً يكاد يفيض علي. كنت أعيش في شقة فارهة في منطقة مرتفعة من عمان الغربية، وكنت منها اراقب مدينة متموجة، تكاد تكون بيضاء اللون. في الليل كنت أشعر إنني في مركب مسافر، وثمة ميناء يتلألأ أمامي- ميناء أنا خارج منه إلى عرض البحر، أو قاصده في دخول بطيء ساحر.

لقد وفر لي هذا المكان عزلة. كنت اتمناها، لكني كنت انتبه بين الحين والحين إلى إنني ما زلت أحمل أمتعتي القديمة الداخلية. كانت أخبار الوطن مقلقة، ومن مكاني كنت أسمع دمدمة خافتة لحرب قادمة، وفي منامي كانت انفجارات توقظني على ليل بغدادي مليء بالتهديد.

كانت أخبار الوطن غير مؤكدة أيضاً، وغير مؤكدة مشاعري الخاصة إزاءها فما أن تبدو إمكانية وقوع الحرب بعيدة حتى أراني أقول: سوف يطول حبسنا إذن! وما أن أرى الحرب تقترب جداً وتصبح شبه مؤكدة كنت أدعو الله أن لا تقع!

كنا على الحافات القلقة، والجميع تحولوا إلى ستراتيجيين، والكثير ممن كانوا رجعيين وخونة أضحوا معادين للاستعمار فجأة. في عمان تستطيع أن تلتقي سائق تكسي يحدثك عن أن صدام حسين سوف يلقي بقنبلة نووية على إسرائيل إذا ما تجرأت أمريكا على خوض الحرب. المشكلة إن الجميع يصدقون أي شيء يقال، والفضائيات العربية تملأ النفوس بالأكاذيب والخبال. كانت صورة العراق تتمرجح في عقول مجانين وكتابين ولصوص وقوادين وتجار وسياسيين فارغين. الجميع كان يخذل هذا الوطن البائس من الجهة التي يقف فيها: المدافعون عن النظام بمعارفهم المجانية وأولئك الذين يتمنون الحرب للخلاص من النظام على نحو مجاني.

من الصعوبة أن تريد شيئين غير متآلفين ومتناقضين تماماً. كانت تروعني وضع القضية العراقية مؤسفة: توزيع الإمكانات على التخوم دائماً، إما هذا وإما ذاك، إما النظام أو الأمريكان. كان هذا غير عادل وغير إنساني. وبالعكس، في سياق منطق جدلي وواقعي يمكن أن ترى إمكانات عديدة. فإذا كانت الشروط سيئة جداً فسوف تختار أن تكون عادلاً في الرفض والقبول من دون إحساس بالذنب. ومن المؤكد إنك تستطيع أن تقول لا ونعم في وقت واحد، وفي اتجاهات مختلفة، وقد ترفض كل شيء مفضلاً أن تكون تجريدياً أو عادلاً وغير حاملٍ في عالم مملوء بالأخطاء.

هذا في السياسة أما في الحياة الواقعية الدائمة المخيفة المستقرة منذ ولادة دولتنا الوطنية الحديثة العرجاء فيتساوى الجميع في الضعف وعدم القدرة على الفعل حتى لو كانوا يمتلكون أصواتاً قوية. أنت في عز النقاش السياسي تحيل كل شيء إلى تفت الحياة فتتعرف أن لا فائدة.. وعيك الرجوع إلى البيت فوراً.

في القضية العراقية كان الجميع غير مؤثرين، وكان توزيع القوى واضحاً كل الوضوح، لكنه منسوج تماماً بخيوط الدكتاتوريات العربية، وهو ما لم يره ديمقراطيون عرب في الأمس.

منذ أيام أعراس الجبهة الوطنية في العراق لقيت في الصحيفة التي أعمل فيها بشيخ البائسين، وكان من المتوقع أن تقتهر لي ندبة يأس على جبهتي من زيادة في الانسحاب من الحياة.

لكن ان اكتشف إنني مريض سيكولوجياً بعد وصولي إلى الستين- وفي عمان نفسها- فهذا أمر غير متوقع - من الشهر ان أكتشف في تلك المكان المنفيق الواسع شبه الحقل الذي تلعب فيه ريح عمان الرائعة أنني مصاب بفوبيا الأماكن المغلقة. لقد فاجأني هذا (الترف) السيكولوجي وأنا بعيد عن السجن العراقي وفوبياته التي لا ترياق لها. كيف حدث هذا؟ لا أدري!

لا تعطيك الفوبيا معاسكها لانهائي التي تمسك بك. لعلي جئت بها من العراق وكانت نائمة فأثارها هواء عمان البارد يوقظها. ما من شيء واضح. في العراق هناك امكانية أن تكون مريضاً وأنت لا تدري، ثم إنك تستخاف أن تدري، فإذا ما فعلت فستجعل منها واحدة من آثار السياسة، وهذا ما يخفف عنك بعض الشيء، ويمنحك هوية ما. السجن العراقي ولد عندنا الرغبة في التكلم عن أنفسنا بما يخفف عن كواهلنا... كلام كاتب مليء بالثوريات وبلغات اللسان والتصحيحات المستمرة. المثقف العراقي مولع بتحفيل الآخرين على نحو يخفي نفسه في تحفيله. إنه يقف عند بوابة المستشفى وينادي على أسمائنا واحداً بعد الآخر ويسمع لنا تشخيصاته السريرية. أظن إن أستاذي علي الوردي كان يفضل أن يكون طبيباً اجتماعياً على أن يكون عالماً سوسيولوجياً، من هنا فقد بات على نحو ما ضحية لتشخيصاته لامراضنا الاجتماعية في التناشز الاجتماعي او الشيزوفرينيا. ولقد خبرته سيكولوجياً أكثر من أي شيء آخر حين يسمع أو حين يرد على عقلية متأصلة فينا، ولا فكاك منها. لا تمثل علي الوردي كتبه فقط، بل وضحكته حين كان لا يصدق إننا لم نكن بدواً، وكان على نحو ما يتهم عندنا اليأس عندما نحاول الاتصال به عن طريق روح الجد والتأمل والسلامة. إن العراقي إنسان يراقب الآخرين ويشخص أمراضهم لكنه لا يراقب نفسه.

أن أكون مريضاً ليس أمراً غريباً. واعترف إنني أشعر دائماً بأنني مريض أو أكاد أمرض، وأحياناً كنت أتمنى أن أمرض كنوع من الخلاص. في عمر الأربعين كنت أتمنى أن أكبر بسرعة حتى الشيخوخة لكي أتحرر من لهفتي في أن أكون خطراً. كنت أعتقد- وهذا صحيح تماماً في التجربة العراقية- (إنهم) في شيخوختك يمتعلون أسمك من قائمة الصراع والمساءلة. إن ما كان يثير الخلل في حلمي (ويعجبني أيضاً بعض الشيء عن مزالق التجارب القاسية المتعمدة) هو امتلاكي لعادة عدم تصديق جذرية كانت تقويني على المرض وعلى الصحة. وأنني امتلكت حيلاً غريبة: في المرض يأتيني ملاكي الحارس ويهمس في أذني: كف عن هذا... قم من فراشك واذهب إلى العمل. وفي عز الصحة كان ملاكي الحارس نفسه يربت على كتفي ويقول: لكنك مريض... لا تتوهم بالصحة!

لكن كان هناك بالرغم من كل شيء، بالرغم من الحيل، التعب من المقاومة، ومن اليأس، ومن العمل، ومن الأمل، ومن الآخرين، ومن الرقابة، ومن إرادة أن تكون صاحياً لعدو راح يعد سكناه في داخلك.

إن مشاعر مرض كهذا (أظن أن لا اسم له) دفعتني إلى حالة من الصحو الدائم على العناصر التي كانت تغيب من حياتي وتقتلها أو على وجه التحديد، الصحو على الغائبين الأحبة، أو على حياة أعرف إنها موجودة لكنها غير حاضرة الآن. لكن ما أن يدوم هذا الصحو حتى يبدو مرضاً حقاً، لأني أسهو بعدها، وأتعب، ولأنني في النوم لا أستطيع أن أسيطر على ما يبدو وإنها حياة أخرى عشتها، هكذا يتفكك الصحو والانتباه، وتستبدل المسافات وتتغير مواقعي منها، وما ابتعد عنه يقترب هو مني، وما أريده في التو يصبح عدواً لا يطاق. ثمة فوبيا في هذه المشاعر لكن لا أعرف لها اسماً.

تحقق فوبيا الأماكن المغلقة الدروب الموصلة إلى حل، وتلغي أي تخييل يجمع عناصر المشكلة في سياق عقلي واضح. أنت تعرف المشكلة لكن ما أن تعرف الحل، وقبل أن تعرفه حقاً، تخامدك قوة مجهولة تمنع عنك التخييل في السياق الكبير المرتبط بالتجارب والتعميم وقوة العقل، لتدفعك إلى السياق الصغير، أي إلى الفوبيا نفسها، حيث الباب مغلق، وقلبك يكاد ينفجر والعرق يتصبب منك، وشبح يقول لك: سوف تموت الآن!

أن تمنعك فوبيا الأماكن المغلقة يعني تعيد انتاجاً مسرحياً للحدث، وسيتكفل خيالك الحاذر بالباقي، ولسوف يبدو كل شيء وكأنك أنت من أغلقت الباب على نفسك من الخارج. سوف تتلوم وتهدئ من روعك لكنك ستشعر بوجود أمثجة ما في معدتك، شيء ما، قطعة من تلاء مقيتة، سحابة سوداء مشحونة بالكهرباء.

في شقة عمان الفاخرة كان ثمة نافذة أمامي بطول ثلاثة أمتار مع شرفة هي مصب ضياء وهواء وأصداء، إلا أنني مريض أو اتمارض، أو أعيد انتاج الفوبيا لكي أتخلص منها فإنها بي أعرق وتزداد نبضات قلبي. ثم إن عقلي العراقي الذي يأبى الاستسلام لساعة هناء يحقق نوافذه وشرفاته، متخيلاً عنصراً واحداً هو خط التلال الرهيف الذي يلامس سماء عمان الناعمة الذي يستقبلني قبالتي. إنه يسحبه إليه ويجره للتعثر من زعم التلال والطبيعة الجفيفة. ليس ثمة غير هذا الخط المسحوب من الشباك. ولأنه خط سفر - كما أزعم - متماه هو خط ملامسة ناعمة، يبقى عقلي على هذه الوتيفة ليمد الخيط حيثما يصل. فإذا هو خط مهرب وإذا هو خط كسر، وإذا هو شرخ، وإذا هو وصل لا يصل. إنني أسحبه إلى ابني الغائب في هامبورغ ليتكسر هناك ويدخل في فجوة لا تعبر ليعود متعوراً. إنني لا أستطيع حتى أن أحصل على صورة هذا الغائب الذي جاء من صلبي. لقد نسيت وجهه. نسيت وجه عبد الرحمن منهل ابن الغائب رياض قاسم علي طالب الذي كان قد سافر قبل أيام إلى هولندا. ليس هذا من عمل الفوبيا بل من التفكير العاثر تبدد بشوق مجرد، بالاخفاق المتكرر، وبمعاودة الاخفاق في الاتصال. يتصل ولا يصل: إنها تجربة مخيفة تجربة اتصال في انقطاع جسدي جذري، تجربة شوق فيه الكثير من الاسراف، شوق حائر مقاع صائح أنت فيه بالكاد تحتمي منه بذكرى وجه أو ظل أو شبح، لكن ما هو مؤكد فيه أن جسدك يزداد تحديداً كما ازداد نأياً عنك. أنت ترى هاهنا، وحيداً ضائعاً في الظل، من دون أمل.

والآن ما علاقة هذه التجربة بشاكر حسن؟ إنها علاقة مريض بمريض، ولعلي هنا امنح نفسي بعض الامتياز، فشاكر حسن هو أكثر المرضى الذي عرف أن الشفاء هو الذهاب بصحبة ذلك الخط إلى النهاية ومن دون تردد، ومن دون خوف من تحولاته، وعدم الرجوع وإغفال مشاعر الخسارة، ثم الشجاعة في البحث عن غائب هو أكثر من غائب لأنه فاعل كان قد مر من هنا وترك أثراً.

كان شاكر لا يخفي فعل الاتصال بالغائب الفاعل، لكنه كان يخفي إخفاقه في الاتصال به، من هنا كان يعاود. كان فنه كله هو فعل معاودة وفي المعاودة يحول الدلالة في الشكل الأقل كثافة، بل ليس ثمة شكل، فالملامسة لا تذهب إلى الشكل بل إلى التنسيق والمناورة واستخدام السهو والمصادفة كقوتين من قوى المحتملات النيرة. وكان الخط يضحي كسراً، وخط التلامس يضحي خط هرب، ثم العودة مجدداً، العودة إلى إخفاق تال- هذا الخط المنتصر، المجرد تجرداً كاملاً من شبهة التجسيد، والذي لا يمس، وكيف يمس ما دام ليس بدءاً أو جبلاً أو شجرة أو وجهاً؟ الغائب ليس هو هذه الأشياء، ولا تشبيهاتها وصفاتها وقرائنها. الغائب فاعل لا يتأمل فعله بل يمضي مسرعاً بعيداً عنه. إنه يترك ذاتية، يبصم من دون أن يعتقد إنه يبصم، لأننا لا ندري.. هذه (اللاندري) هي من القوة بحيث أننا ما أن نتأمل مغزاها حتى ننهار ونكف عن العمل. لابد أن ذلك الفاعل يلهو أو يلعب. من يدري. ما ندريه هو إنه كان هنا وغاب.

يصنع شاكر ايقونات في محبة شيء لا يرى. ثمة ايقونات للتخبيئة. ايقون للمعراج تتمانيق فيه الكفة بالعلى.. خط يصعد.. والمعراج يصعد.. لكي تحب يجب أن لا تسأل عن المغزى بل أن تشهد ليس إلا. الشهادة ايقون. والغائبون الراحلون لا يمثلون إلا بآثارهم مثل الروائح لا يقبض عليها، بل يعاد الاقتراب منها في الايقونات المبعثرة وهي لا تجسد الفاعلين ولا تمثلهم بل تشهد على آثارهم في أسى غامض، وتعاود الشهادة في أسى مجتهد، وتكرر المحاولة في فرح اللقاء من على بعد.

سوف أصف أشياء أكثر تحديداً، تخصني، ومرتبطة بتجربة شاكر حسن. ففي واحدة من احتفالاتي العدائية في الاتصال انتبهت إلى إنني انتظر بعين لاذني الانزلاق إلى أماكن غير مسكونة. وكنت أدير النظر فيها كما لو إنني ابحث عن شيء ضائع، أو كأنني انتظر شبحاً يقيد في تلك العتمة يظهر لي ويحدثني.. وتذكرت شاكر حسن: إنها نظراته نفسها في عامي 2000 و2001. كان يراني ولا يراني، نظراته تخترقني تنزلق عني لتذهب خلفي، وتخترق الحائط الذي ورائي، وكنت أراه يبتعد ويتوغل، ثم يلتقي بشبح ويتحدث معه حديثاً صامتاً.

في تلك الايام كان شاكر يتوغل في الشيخوخة والمرض والصمت. وفي لحظات مرضي آثار حدث استعيد شاكر حسن بوصفي واحداً من اقرانه، وبوصفه المريض العراقي المثالي الذي جعل من مرضه واحداً من قواه الابداعية. والمريض الذي كان يكرر اخفاقه في الاتصال بالغائبين من دون كلال. المريض الذي لا يشفى ولا يريد الشفاء، المتحول ما بين المرض والصحة، اللاعب بينهما، المتمتع الشجاع من امكاناتهما، والذي ما عاد مريضاً ولا صحيحاً، لأنه أضحى متخصصاً في صدوع القلب البشري من دون أن يشفى منه أو يشفيها.

لقد مثل شاكر جدراننا المصدوعة في المحنة التي كانت صدوعنا الاجتماعية تتوسع وكان قبل ذلك قد استبدل الفاعلين، فبدلاً من فاعل مشخص أضحى الفاعل غائباً، وكلما ازداد تجرداً كان يشرك الصنعة في مواد مختلفة ثقيلة الوزن وكان هذا المعادل الواقعي يقيم توازناً بين التجريد وفعل المنازلة العاطفي خلف آثار الغائبين. الصدع تحول إلى كسر عميق وشق يجري كالنهر. وفي تلك الأيام كانت السياسة نفسها تستبدل القيم: المجتمع يذبح لصحة فرد واحد. الرسم لا يتحدث في السياسة لكن يغير خطته، يعبث لحساب الغائب- أي جدران مصدوعة أيها المصدوعون؟ إنها صدوع التلفزيون، صدوع عكس، صدوع قصف، صدوع مجتمع، صدوع زواج، وصدوع الذكاء غير العادي، التسحيه التالم، الحزين، في الصحراء العراقية المتبسملة على الجهل والعنف والتفاهة والفاشية.

لقد اتقلني شاكر حسن دائماً من دون أن يدري، ولقد تابعت عمله الفني باسم النقد (هذا النقد الذي اكرهه اليوم تماماً) من دون أن أدري أنني اتابع مرضي وشفائي. ومن دون أن أدري كان يمثل روايتي (الثل) هو شاكر حسن نفسه لكن ليس هذا الذي يصدق روايته عن نفسه كما كان شاكر يفعل بما يثير غيظي أحياناً، بل شاكر الذي أعدت صياغته بوصفه راوية لا يأخذ مأخذ الجد ما يرويه حتى وإن كانت روايته قابلة للتصديق. راوية كان يهد ما يبنيه، ويشك في أحزانه وأفراحه. شاكر الآخر الذي يفضل الشك على سلامة النية والايمان الخادع والمصالحة. وشاكر الذي يسعى للشوق والاتصال والملامسة ليس لكي يكرر الايقون بل لكي يتقفى أثره من دون أسف ولا رجوع ماسحاً آثاره خلفه. ثم شاكر الآخر المبتلى بالمرض من دون أن يتظاهر بالشفاء ومن دون أن يصدق مرضه أو شفاءه مفضلاً عليهما حالة تفاهة دائمة مرعبة.

في ليلة عمانية رائعة بدأت أكتب عن شاكر حسن من خلال علاقتي به ابتداء من مرضه ومطمح شيخوخته الواهنة الجفيفة. وكنت افكر بإمكانية موته كامكانية موتي أنا نفسي. كان يعنيني- بالتأكيد- أن أقدم شروحاً إضافية عن عمله الفني، لكنني حقيقة كنت أقاوم بشاكر مرضي وخذلان تجاربي في استدعاء الغائبين.

وكنت قد توصلت قبل هذا التاريخ إلى استنتاجات لم أحدثها بوضوح بشأن الشروخ التي صورها على الجدران أو خطوط الكسور التي تمتد في لوحاته، إذ رأيت فيها خطوط هرب وحرية تمتلك جميعاً تحتارها ومعانيها وتمثلاتها واشواقها إلا أننا السبب من الأسباب لا نمدها حيث يجب أن نمدها: إلى حريتنا وإلى حرياتنا.

الفقرات الآتية هي ما كتبته عن شاكر في بداية الشهر العاشر من عام 2002 في عمان. ولأن الموضوع طويل بعض الشيء فقد آثرت أن ينشر بثلاثة أجزاء.

خبر عن المرض

حين علمت في خريف عام 1999 إن الفنان شاكر حسن آل سعيد مريض، تهيأ لي أنني أسمع خبراً عن سبب غيابه ليس إلا. خبر يعنيني لكن لا يستعجلني. لعلي أنا الآخر في البيت من دون أن أكون مريضاً سمعت في التو خبراً عن مكوث في البيت، عن عصيان صغير، أو انسحاب لا تترتب عليه مسؤوليات ونتائج ومطالب. إزاء ذلك كان المرض الذي يقعدنا في البيت قد بات واحداً من قوانا من اجل أن لا نكون حاضرين إلا لأنفسنا. كنا أحياء على أية حال، أحياء في سنوات تمضي بنا ما بين اللامبالاة وعدم التصديق، ونسيان حقائق الزمن والعمر.

كنت أعرف شاكر حسن جيداً. أعرف على نحو خاص طريقته في الغياب، إنها طريقة من انهمك في تجهيز معدات جديدة لأفكار قديمة. كان عمله الفني يدور حول الغيابات، يصنعها بحضور اثر هيفة، ومن ثم يعين المنطقة التي وصل إليها: هناك هنا، في صدع، وبقعة، وخربشة، ونتوء، وتكثيف مازج يمحو ما تم كتابته.

على نحو ما كان شاكر في ذهني يمارس حجة أو مكيدة.

لكنه كان مريضاً حقاً. هذا ما أكده لي صاحب صالة (أثر) الذي طلب مني مستفيداً من علاقتي القديمة بشاكر، أن ازوره في بيته من أجل إقناعه بإقامة معرض استعادي كبير. في تلك اللحظة استوعبت الأمر، فأصحاب الصالات أكثر معرفة بقوانين الأرض وأكثر استجابة للضرورة: كان شاكر قد تجاوز السبعين بأربع سنوات. كيف فاتني ذلك؟ إن الأمر جاد.

محنة في الاقناع

قبل نحو ثلاثين عاماً كنت في صالة الزوار هذه لم يتغير فيها شيء. الأرائك القديمة نفسها، وخزانة كتب أظنها تعود إلى زواجه. ما من لمسة فنية واحدة، ولا أتذكر رؤيتي لوحة معلقة. تدبير مليقة وسمتي مكافحة تأكل جيداً أو لا تعير اهتماماً للكماليات والإدعاء.

ظهر بدشداشة زرقاء وبفروة سوداء مفتوحة. كان ضعيفاً، مريضاً، بطيئاً، إلا إنه سحبني إليه بود. أصابعه النحيفة ظلت في يدي لبرهة: كانت ساخنة. جلس قبالتي ورحنا نتأمل كما لو أننا في تعارف جديد. وسرعان ما أمسك بموضوع بدا لي أنه كان قد هيأه قبل مجيئي. قال: أنت تعرف أنني اعتدت الحديث عن تجاربي الفنية والتنظير لها، وها أنا أعترف الآن بأنني أخطأت. خطأ. نعم. العمل الفني لعبة، الانسان على الأرض يلعب، فإذا تحدثت بجدية عن لعبة، وتحدثت بغموض عن لعبة، في حين أن العمل الفني واضح لا يحتاج إلى شروح وتفسير. الأدهى من هذا أنني احتجت إلى الآخرين، إلى فهمهم، لكنهم لم يفهموا وتعرضت إلى أذاهم.

هل كان يعرف أمبشتكي؟ لم يكن جديداً أن أعرف منه أن العمل الفني لعبة، الجديد أن يهاجم نشاطه غير العادي في الكتابة والتنظير، وأن يعاني سوء فهم الآخرين.

فجأة كما لو وجد مخرجاً غير الكلام وأخذ يتحدث عن الفحصات الروحية السامية التي يحصل عليها كلما ذهب إلى الجامع يصلي. اكتشف إنه ليس وحيداً وهو سعيد.

بدا هذا التصريح غريباً، فقد كان يؤدي فروضه الدينية في أوقاتها، واحب دائماً الصلاة في الجامع واحسب إنه أراد أن يقول: على الرغم من كل شيء فقد عرفت كفايتي التي كنت قد عرفتها أيام الصراع، لكنني الآن في هذا الضعف، اقبض عليها بقوة.

كنت اتأمله بتعاطف، وإن لم أصدقه تماماً. ففي نقده لنفسه شعرت إنه يجربني مستهدفاً أن أصحح له هذه الآراء المتأخرة عن نفسه. لكن ماذا أصحح؟ ما من خطأ في الحقيقة. إنما ما كان يلعب معي الآن فإذنه أحب اللعب دائماً، مع نفسه ومع الآخرين، ضد نفسه وضد الآخرين. لقد عاش حياة متناقضة متوترة، مائل إلى الصراع لأنه صاحب دعوى كان مدعواً أخذ عالج تناقضات وعيه الذاتي وتناقضات الحياة. كتب لأنه لابد أن يكتب، رسم لأنه رسام بامتياز. ما من خطأ. ما من خطأ حتى حين كان يبالغ أو يختلق أو يمرر غموضه. إنه فاتن وصاحب حيلة، أختص بصدوع القلب البشري ليجد لها نظيراً في صدوع الجدران. فكيف يمكن لرجل كهذا يعبر من هذا الصدع إلى ذاك، أن لا يكون غامضاً، وأن لا يخرج سراً وأن لا يخاصمه الآخرون؟

قلت له باختصار: كنت أنت في ما كتبت ورسمت، كنت أنت دائماً، وليس هذا بالقليل. غامض؟ أنا الآخر غامض، أنا الآخر أخطأت. كلنا دعنا من الشجن والسجال.

ابتسم لي في عينيه. لقد حصل على ما أراد. وبدأت محنتي في اقناعه بتنظيم معرض استعادي. كانت عينا صاحب صالة (أثر) تحتاني.

كنت مدركاً حساسية أن أقول لفنان مريض تجاوز السبعين أن آن الأوان لتنظيم معرض استعادي. آن الأوان! هنا يشبه قولي: قبل فوات الأوان!

- ما رأيك بتنظيم معرض استعادي؟ قلتها كاقتراح، وبطريقة من يدعو نفسه لعشاء.

حدق في وجهي ثم انزلق نظره تجاه نافذة كانت خلفي. كان هناك ضوء خريفي يتماسك وينفذ بوهن عبر الزجاج، وكانت ثمة أصوات تتسلل إلى الصالة من الخارج، وخفته انتبه إليها، أو انتبه إلى حركة ما حدثت عند النافذة. وقال بهمهمة متفكرة: لا.. ليس الآن.

كان رائعاً، يقظاً على الحياة حياته، وأظنه سمع ملاكه الحارس يهمس في أذنه: هنا توقفت!

وأضاف بشيء من الحيوية: أفضل معرضاً عن أعمالي التسعينية.. ولسوف تقوم أنت بتقديمه في الدليل.

الصورة الاخيرة لشاكر حسن

ومرة أخرى حصل على ما أراد، فقد أقيم معرض التسعينيات الذي قدمته، وأقيم المعرض الاستعادي في عام 2001 بتقديمي حسب طلبه. وما بين هذين العرضين أصيب بجلطة دماغية. كان لسانه ثقيلاً، وكانت الكلمات هو الخبير بها تهرب منه، فينخلع عن محنتيه في منازلة عنيفة يائسة بحثاً عنها. وكان ثمة عنف يصطرع في داخله ينتهي بابتسامة يائسة لا مثيل لها. عيناه ليس إلا كانتا تخبراننا عما يريد ولا يريد بوضوح، عينان ساحرتان كان حائرتان تريان بين الحين والحين أشباحاً في الزوايا.

وكان هناك وقت، ودائماً هناك وقت، حين الأشباح تختفي وحين يوالينا الصبر، وحين تدير الحياة المجنحة من حولنا رؤوسنا.. وقت لكي يظهر شاكر بين الجميع بكامل أناقته مع زوجته وأولاده الكبار وزوجاتهم وأطفالهم وجمع من الأقرباء، ووقت آخر لا يخلو من مرح لالتقاط صور تذكارية مع عائلته الكبيرة وجمع كبير من الفنانين والأصدقاء.

أتذكر في معرض التسعينيات أنني جلست قبالته بينما كان الضيوف يغادرون. لقد انقضى يوم مثير، وأصوات نهاياته المبعثرة تصنع فجوات مرنة من فراغ فإذا به يحدق بي ويسألني: أهذا هو.. لقد انتهى! واستعدت آخر كلمات المسيح وهو على الصليب: لقد أكمل، وامتدت أصابعي لتلامس يده وتضغط عليها.

في المعرض الاستعادي كان شاكر قد أحيط جيداً من عائلته بسبب حالته الصحية، وبدا أحياناً قانعاً بهذه الإحاطة، وكان بين الحين والآخر يتسلل بهدوء نحو أصدقائه وطلابه مقدماً إيضاحات لم تكن ترضيه، إذ كان ينسى أحياناً ما يريد قوله. كنت أراه يرزح تحت ثقل حزن هائل، حزن خاص لا أستطيع أن أصفه أو أفسره، لأنه بدا لي خارج شروطه، يتجاوز حالته المرضية وإحساسه بالعزلة. لا أعرف.. لا أعرف كيف أقول هذا وأنا مطمئن: كان حزن عاشق مهجور، عاشق على وشك أن يجهش ببكاء حار.